مصطفى عشوي
أستاذ علم النفس - الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.

❖ مجلة إسلامية المعرفة، السنة الثانية، العدد السادس، سبتمبر 1996، ص37 – 68 [32 صفحة من القطع المتوسط].
❖ لغة البحث (الكتاب): اللغة العربية.
❖ مجال البحث (الكتاب): الشخصية الإنسانية، الطبيعة البشرية (دراسة مقارنة).

❑ ❑ ❑

يبدأ الباحث بالإشارة إلى أن موضوع الطبيعة البشرية - كتمهيد لدراسة الشخصية الإنسانية - لم يلق أهتماماً جيداً حتى من علماء النفس الغربيين، حيث اعتقد معظمهم أنه لا طائل من دراسة الطبيعة البشرية لأن عامة الناس هم الذين يعمدون إلى تفسير السلوك على أنه جزء من الطبيعة البشرية لا غير، وهم - علماء النفس الغربيون - غير مهتمين بعالمية السلوك الاجتماعي بسبب تركيزهم على دراسة علم النفس الاجتماعي التجريبي.

إلا أن الباحث يرى أن علم النفس الغربي بدأ يولي هذا الاتجاه بعض الإهتمام (Stevenson، 1974، Chaney، 1994، Wrightsman، 1992، Schultz، 1994)، وكذلك ظهور بعض الدراسات والكتب في هذا الباب من وجهة نظر إسلامية (العقاد، بنت الشاطئ 1982، بركات أحمد 1981، وأمير 1984، الفاروقي 1984، سيد مرسي 1988، أكبر أحمد 1990، نزار العاني1995).

❋ ثم يحدد هدف ورقته كإسهام في هذا الاتجاه وأنها قائمة على دعامتين:

- محاولة فهم الطبيعة البشرية قرآنياً ونبوياً
- اعتماد منهج مقارن بين المنظورين الإسلامي والغربي للطبيعة البشرية

❋ ويبدأ الباحث بعرض مفهوم الشخصية من المنظور الغربي من خلال طروحات (Schultz/ 1994) في كتابه (نظريات الشخصية)، ليبين أن عنوان الكتاب (نظريات وليس نظرية)يدل على الاختلاف في وجهات النظر الغربية في الشخصية الإنسانية. حيث يستعرض الكتاب (18) نظرية جمعها في (9) فئات أو

اتجاهات كبرى، ولكل اتجاه منها أفتراضاته وطرق بحثه وتحديده لمفهوم الشخصية وتصوره لأبعاد الشخصية وخصائص الطبيعة البشرية. ويرى (شولتز) أن دراسة الشخصية ربما تكون أهم إسهام لعلم النفس في إنقاذ البشرية، ويتساءل الباحث إن كان بمقدور علم النفس عامة والاتجاه الإسلامي في علم النفس خاصة إنقاذ البشرية في الحياتين: الدنيا والآخرة.

* ثم يبدأ الباحث باستعراض تصور إسلامي للطبيعة البشرية من خلال خصائص الطبيعة البشرية التي اقترحها (شولتز) لتصور (الشخصية) ومن خلال أبعاد إضافية يقترحها الباحث اجتهاداً منه في هذا المجال، وهو لا شك تصور بشري نسبي. مع تحديد نقاط الاختلاف الرئيسة بين نظريات الشخصية وهي: الحرية أم الحتمية، الوراثة أم البيئة، الماضي أم الحاضر، التفرد والتمايز أم العالمية، التوازن أم النمو، التفاؤل أم التشاؤم. ويحاول الباحث في ورقته تقديم تصور إسلامي للإجابة عن هذه الأسئلة من خلال الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة.

* يبدأ الباحث بخصائص الطبيعة البشرية من منظور إسلامي (ويصر الباحث وفي أكثر من موضع على أن الوجهة الإسلامية المعروضة هي من خلال فهمه الإسلامي الشخصي لهذه القضية). ويرى الباحث أن أول الحديث عن الطبيعة البشرية يجب أن يبدأ من خلال دراسة: خلق الإنسان، حياة الإنسان، مصير الإنسان (في الآخرة)، ثم دراسة الإنسان من خلال ثلاثة أبعاد ذات علاقة ببعضها: البعد الروحي، البعد (الفيزيائي - البايولوجي)، البعد السلوكي.

- فمن حيث البعد الروحي فيقصد به الباحث الجانب الإيماني (ويفصَّل فيه)
- ومن حيث البعد التكويني (الفيزيائي - البايولوجي) فيذهب إلى ما يذكره القرآن الكريم من قصة خلق آدم عليه السلام وأصل التناسل في الجنس البشري (أطوار نموه)
- وأما البعد السلوكي، فدراسة السلوك هو مهمة علم النفس الحديث بمفهومه العام: التفكير، التذكر، وأي نشاط يقتضي عبادة وتعاملاً، وأن

القرآن بمجمله إنما قصد سلوك الإنسان في الدنيا ومصيره في الآخرة، كما أن شعب الإيمان كلها - عدا أركان الإيمان - تتعلق بالسلوك سواءً أكانت على شكل عبادات أو معاملات .

ويحاول الباحث أن يضيف البعد الإيماني في السلوك إلى البعدين اللذين يدرسهما علم النفس المعاصر وهما البعدان السلوكي والعقلي.

ويميّز الباحث بين البعدين الروحي والغيبي:

- فالبعد الروحي يقصد به في الدراسات الإسلامية الإيمان والعبادات
- والبعد الغيبي الإيمان بجوانب لا ينبغي للمسلمين أن ينشغلوا بها كثيراً (البعث، الجنة والنار، الملائكة والجن، نفخ الروح... إلخ)

ويرى الباحث - من وجهة نظره - أنه لم يجد آية قرآنية واحدة تحض المسلمين على أعمال النظر في الجوانب الغيبية في الوقت الذي يكون القرآن الكريم كله دعوة لعمل النظر في مخلوقات الله سبحانه وتعالى.

* ثم يبين الباحث أنه يريد - بدراسة مقارنة بين وجهتي النظر الإسلامية والنفسية الغربية - تبيان بعض القضايا الأساس بشان خصائص الطبيعة البشرية:

- فمن حيث «الحرية أم الجبر» فالباحث يرى أن الإنسان محدود العلم فلابد أن يكون محدود الحرية، والشرط الذي ادخل الله به آدم الجنة يدل على حدود حريته. وفي الجزء المتاح له من الحرية يتحمل دون شك مسؤولية حريته فلا حرية دون مسؤولية، ولكن الإنسان محدود القدرات فتحد من حريته في بعض المجالات فهو ليس في باب الإختيار دائماً: متى يولد، متى وأين يموت... إلخ. أما المدارس النفسية فهي مختلفة ومتناقضة في هذا المجال (يورد الباحث ويفصَّل في هذه المدارس).
- أما من حيث «الخلود أم العدم» فهو أمر لم يتعرض له علم النفس الغربي كما يشير الباحث رغم أهميته وتأثيره في السلوك. فالإنسان المعتقد بمسؤوليته أمام الله ومحاسبته سيكون سلوكه مختلفاً عن غير المعتقد في ذلك.

- هل الإنسان ببعد واحد(مادي)أم ببعدين (مادي - روحي)؟

ورغم عدم أهميته في نظريات الشخصية ولم يتطرق إليه (شولتز)، فإن هناك بعض الطروحات البسيطة عن الموضوع ولا يجد له مناصرين من علماء النفس المحدثين. ويرى الباحث أن هذا البعد الثنائي يمكن أن يملأ فجوة النظريات النفسية المعاصرة التي تنظر للإنسان من زاوية واحدة.

- هل طبيعة الإنسان خيرة مطلقة أم شريرة مطلقة؟

وهذا سؤال يذكر الباحث عدم تعرض شولتز له، وكذلك علم النفس بحجة كونه موضوعاً فلسفياً أخلاقيا. ولكن الباحث يراه ذا ضرورة في هذا المجال لأن الإجابة عنه تتضمن حكماً قيمياً وموقفاً خلقياً وهو الشيء الذي يحاول علم النفس المعاصر تجنبه.

- هل سلوك الإنسان مبني على النيات؟ على الأعمال؟ أم عليهما معاً؟

ويذكر الباحث أن هذا الموضوع خارج مادة علم النفس المعاصر لأنه مفهوم ديني يتعلق بالجانب التعبدي، بينما هو غاية الخلق في المنظور الإسلامي.

- ما الذي يؤثر في سلوك الإنسان بدرجة أكبر: ماضيه، حاضره أم مستقبله؟ أم كل ذلك؟

ويذكر الباحث أن نظريات علم النفس مختلفة في ذلك (ويفصَّل في هذه الاختلافات). بينما يرى الإسلام أن الفرد لا يبقى سجين ماضيه، وقد استطاع الإسلام تغيير أقوام وحضارات تغييراً جذرياً ووجهها توجيهاً جديداً وغيرها في مجال العقيدة بالذات.

- هل البيئة أكثر تأثيراً في السلوك أم الوراثة؟

ويذكر الباحث أن الإسلام يعطي للبيئة أهمية أكبر مما يوليه للوراثة، من جهة أخرى فإن نظريات علم النفس المعاصر تختلف في هذا الأمر لحد التناقض.

- هل التفاؤل أساس الطبيعة البشرية أم التشاؤم؟

ويرى الباحث أن الإسلام كله دعوة للتفاؤل وعدم الإستسلام لليأس ولا للقنوط حتى للمسرف في ذنوبه وخطاياه. بينما تنزع بعض مدارس علم النفس

إلى التشاؤم الكبير(مدرسة التحليل النفسي) بينما تنظر إليه مدرسة السمات والإنسانية نظرة تفاؤلية والمدرستان السلوكية والمعرفية نظرة تحكمية مسؤولة.

- وهل يسعى الإنسان إلى تحقيق التوازن أم هو في نمو مستمر؟

يذكر الباحث أن الإسلام يرى الإنسان في نمو مستمر جسمياً ونفسياً إلى أن يبلغ أشده في الأربعين ثم ينتكس بعد ذلك إلى أن يموت. ويستعرض الباحث ويفصَّل في رأي المدارس النفسية في هذا الأمر وأمرها غير واضح ومشتت فيه.

- هل الإنسان متميز منفرد أم له عالمية وشمولية؟

يذكر الباحث أن أغلب علماء النفس الذي كتبوا في الشخصية اعتبروا الإنسان متميزاً بثبات عبر الزمن إلا أنهم اختلفوا في التفرد - العالمية (يفصَّل مرة أخرى بين مدارس علم النفس المعاصر واختلافها). ثم يبين وجهة نظر الإسلام في إقرار الأصل الواحد للبشر(من نفس واحدة) إلا أنهم متفاوتون ومتمايزون عن بعضهم جسمياً ونفسياً.

* وفي آخر البحث يطرح الباحث ملامح تصوره لنموذج الطبيعة البشرية من منظور إسلامي:

- تأكيد الجانب الروحي، لا يمكن فصل الإيمان عن السلوك، هناك تكامل بين الجوانب الروحية والمادية، الإنسان مخير في بعض ومجبر في بعض، البيئة والمحيط أكثر تأثيراً من الوراثة، أهمية النمو والتغير والتعلم في تشكيل الشخصية، الإسلام أكثر تفاؤلاً من علم النفس المعاصر، يتمايز البشر عن بعضهم في كل المستويات، الحاضر والمستقبل أهم من الماضي.

❑ ❑ ❑

عناوين رئيسة:

الشخصية الإنسانية، الطبيعة الإنسانية،محددات الشخصية الإنسانية، اسلمة علم النفس، الإنسان من وجهة نظر إسلامية.

❑ ❑ ❑

ملاحظات:

- ذكر الباحث وبموضوعية أنه أستند إلى كتاب (شولتز) في نظريات الشخصية عند استعراض الاختلافات بين مدارس علم النفس في الطبيعة البشرية أو الشخصية الإنسانية.
- وهذا من حقه كباحث، إلا أنه يستعرض طروحات نفسية تخص كل مدارس علم النفس في قضايا مصيرية حاسمة بشأن الإنسان وطبيعته وشخصيته، مما يفترض الرجوع إلى المصادر الأساس والطروحات المباشرة من تلك المدارس ومنظريها رغم تأكدي من أن الاختلافات لن تكون كبيرة جداً، إلا أن الكتاب الواحد لا يشكل مصدراً عاماً.
- وكما قدمت ملاحظة في بحث سابق للأستاذ الدكتور عشوي فإنه يحاول أن يكون توفيقياً في الرأي رغم أن وجهة نظره مكشوفة من خلال كتاباته وهو غير محايد بين الرأيين.
- كان دخول الباحث في محددات الشخصية الإنسانية موفقاً جداً من ناحية، وأساساً لا بد منه عند التحدث عن الشخصية الإنسانية من ناحية ثانية. وقد تميزت هذه الورقة عن غيرها بسبب ولوجه باب هذه المحددات كأساس لطرح التصور الإسلامي عن طبيعة الإنسان والذي بدونه لا يمكن رسم التصور أو الإطار النظري للنفس البشرية.

❑ ❑ ❑

Obeikandl.com